" ويأن" كيحن: آن يأين ، كحان يحين لفظا ومعنى"[٥١].

تخشع: أي تلين ، وتسكن ، وتخضع تضرع وتذل ، وتطمئن لذكر الله.

قال أهل التفسير: الخشوع الخوف الدائم في القلب ، ومصدر الخشوع هو القلب .

ولقد قرئت هذه الآية بين يدي أبى بكر الصديق ﷺ وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديدا فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب[٥٢]

ولقد كان الصحابة الأوائل يدعون ربهم أن يهبهم خشوعا حقيقيا لا نفاق فيه ، خشوع الظاهر المطابق لخشوع الباطن.

قال بعض الصحابة: أعوذ بالله من خشوع النفاق ، فقيل : وما خشوع النفاق ؟ فقال: أن يرى البدن خاشعا والقلب غير خاشع .

وقال حذيفة: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعا.

وقال سهيل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

وقيل الخشوع: الاستسلام للحكمين.

أعنى الحكم الديني الشرعي ، فيكون معناه عدم معارضته برأي أو غيره، والحكم القدري وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض والاتضاع أعني اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها وإطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح.

فخوف العبد في هذا المقام يوجب خشوع القلب لا محالة ، وكلما كان أشد استحضارا له كان أشد خشوعا ، وإنما يفارق القلب الخشوع إذا غفل عن الله تعالى .

(٥١) أنظر الشهاب: ٩٩/٩.

(٥٢) أنظر الفخر الرازي : ٢٣٠/٢٩.

*** ومما يورث الخشوع :**

ترقب آفات النفس والعمل ومطالعة عيوب ونقائص النفس من العجب والكبر والرياء ، وضعف الصدق وقلة اليقين(٥٣).

وأختم هذه الصفة بالتحلية بكلام أديب العربية ، وفارس الكلمة **مصطفى صادق الرافعي** الذي احتوى صدق العبارة مع عمقها من خلال تعليقه على هذه الآية الشريفة فيقول:

ألم يأن: هذه الكلمة حث وإطماع وجدال وحجة، وهي في الآية تصرح أن خشوع القلب الذي تلك صفته هو كمال للإيمان ، وأن وقت هذا الخشوع هو كمال العمر، وكيف يعرف المؤمن أنه سيأتي له أن يعيش ساعة أو ما دونها ؟! إذن فالكلمة صارخة تقول:

الآن الآن قبل ألا يكون آن ، أى: البدار مادمت في نفس من العمر فإن لحظة بعد " الآن" لا يضمنها الحي.

وإذا فني وقت الإنسان انتهي زمن عمله فبقى الأبد كله على ما هو، ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة، وإن هو إلا اللحظة الراهنة من عمره التي هي " الآن" فانظر ــ ويحك ــ وقد جعل الأبد في يدك ، انظر كيف تصنع به.

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى " الآن" دون غيره على كثرة المعاني .

ثم قال ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ وهذا كالنص على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق ، فلا تقوم بهم الفضيلة ، ولا تستقيم بهم الشريعة، وعالمهم وجاهلهم سواء ، لا يخشعان إلا للمادة ، وكأن إنسانهم

(٥٣) أنظر بصائر ذوي التمييز: ٥٤٢/٢، ٥٤٣. والدامغاني ٣١٦/١.

إنسان ترابي ، لا يزال يضطرب على مكر الليل والنهار بين طرفين من الحيوان عيشه وموته ، وما تقسوا الحياة قسوتها على الناس إلا بهم ، وما ترق رقتها إلا بالمؤمنين.

وجعل الخشوع للقلوب خاصة ، إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم، فهذا الأخير لا يكون خشوعا، بل ذلا ، أو ضعة ، أو رياء أو نفاقا، أو ما كان.

أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصا مخلصا محصن الإرادة ، واشترط القلب كأنه يقول: إنما القلب أساس المؤمن ، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره ، متى كان هذا القلب خاشعا لله وللحق ، فإن لم يكن قلبه على تلك الحال، نبع منه الفاسق والظالم الطاغية وكل ذي شر .

ما أشبه القلب تتفرع منه معاني الخلق بالحبة تتسرح منها الشجرة ، فخذ نفسك من قلبك كما شئت ، حلوا من حلو، ومرا من مر.

وخشوع القلب لله وللحق ، معناه السمو فوق حب الذات ، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة ، وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصحيحة، ويجعلها في قانونين لا قانون واحد.

ومتى خشع القلب لله وللحق ، عظمت فيه الصغائر من قوة إحساسه بها ، فيراها كبيرة وإن عمي الناس عنها ، ويراها وهي بعيدة منه بمثل عين العقاب يكون في لوح الجو ولا يغيب عن عينه ما في الثرى.

وقد تخشع القلوب لبعض الأهواء خشوعا هو شر من الطغيان والقسوة فتقيد خشوع القلب " بذكر الله" هو في نفسه نفي لعبادة الهوى ، وعبادة الذات الإنسانية في شهواتها ، وأما الشهوة عند المخلوق الضعيف إلا إله ساعتها....)[٥٤].

(٥٤) أنظر : وحي القلم ١/١٩٦،١٩٧.

بهذا القول الجامع للقلم السيال والفكر الموسوعي أختم صفة الخشوع كواحدة من أهم صفات القلوب السليمة ، رزقنا الله إياها اللهم أمين.

(٩) الإيمان .

من أبرز صفات القلب السليم "الإيمان" الذي عندما يكتب في سويداء القلب يفوز صاحبة فوزا عظيما.

قال تعالى : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ المجادلة ٢٢ .

هذه الآية تحكي نهيا عن مصادقة الكفار والمجرمين ومحبتهم ، ولو كانوا أقرب الناس كالآباء والأبناء والإخوان والعشيرة ، هذا النهي الذي جاء في صورة إخبار مبالغة في التحذير، حيث لا يجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله ، وذلك لأن من أحب أحدا امتنع أن يحب مع ذلك عدوه ، لأنهما لا يجتمعان في القلب فإذا حصل في القلب وداد أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان(٥٥).

وقد بدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد ، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد ، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء والتسرع إلى ما دعوا إليه.

﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾ أي جمع في قلوبهم الإيمان وأثبته وخلقه (٥٦).

---

(٥٥) الفخر: ٢٧٧/٢٩.

(٥٦) انظر البحر: ١٣١/١٠ وصفوة التفاسير ٣٤٤/٣.

وخص القلب بالذكر لأنه موضع الإيمان[٥٧].

وكما أثبت الله ﷻ الإيمان وأن محله القلب كذلك نفى الإيمان أصله من القلب ، قال ﷻ : ﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم...**﴾ المائدة ٤١ .

وهذه الآية في الذين يقولون بلسان ظاهرهم ما ليس في قلوبهم ولسان باطنهم فينظرون خلاف ما يبطنون يتحدثون باللسان ما يسر ويكتمون في قلوبهم ما يضر ، ورغم هذا تجرى عليهم أحكام المسلمين كهؤلاء الأعراب الذين قدموا على النبي ﷺ في سنة مجدبة فأظهروا له الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ونحن قد جئناك بالأطفال والعيال والذراري ، ولم نقاتلك كما تقاتلك بنو فلان وبنو فلان يمنون على رسول الله ﷺ ويريدون الصدقة ويقولون: أعطنا ، فأنزل الله تعالى :

﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ..** ﴾ الحجرات١٤ .[٥٨]

فالمنفي هنا الإيمان القلبي ، والمثبت الانقياد الظاهري فهما متغايران لغة، ومختلفان شرعا ، إذ الإيمان هو التصديق بالقلب بشرط التلفظ بالشهادتين والإسلام بالعكس ، والظاهر أن النظم من الاحتباك حيث حذف من الأول ما يقابل الثاني، ومن الثاني ما يقابل الأول ، والأصل " قل لم تؤمنوا ، فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم فقولوا أسلمنا ، وهذا من اختصارات القرآن.

(٥٧) القرطبي : ٣٠٨/١٧.
(٥٨) أنظر الكشاف ٥٦٩/٣ ، والعبارة للجمل ، أنظره ٢٥٨/٧ .

يقول **الفيروزابادي** : الإسلام في الشرع على ضربين:

١- دون الإيمان: وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم. حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل ، والثاني: فوق الإيمان: وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد القلب ووفاء بالفعل واستسلام لله تعالى في جميع ما قضى وقدر.

كما ذكر الله عن إبراهيم عليه السلام : **﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين .﴾** البقرة ١٣١ .[٥٩].

(١٠) التآلف.

من صفات القلوب السليمة التآلف حسب منهج الله ﷻ .

قال تعالى : **﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم .﴾** الأنفال٦٢-٦٣

معنى الخديعة : إرادة المكروه بالغير من حيث لا يعلم .

معنى الإلف: اجتماع مع التئام. والألفة: ضد الوحشة[٦٠].

*** حول معنى الآية :-**

وفي معرض حديث القرآن عن علاقة المسلمين بغيرهم ، بين الله تعالى أن الصلح عند جنوح العدو إليه لا مانع منه ، وإن أراد العدو بالصلح مكرا وخداعا ليستعدوا لك **﴿ فإن حسبك الله ﴾** فهو يكفيك فهو الذي نصرك وهو الذي شد أزرك بالمؤمنين وجمع بين قلوبهم رغم ما كان في

(٥٩) أنظر الفيروزابادي ١٨٣/٢.
(٦٠) الراغب: ص٢٠٠ ، والفيروزابادي ٢/ص٤.

العرب من الحمية الشديدة والأنفة العظيمة والانطواء على الضغينة في أدنى شيء ، فلو أن رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثأرهم ، فلما بعث رسول الله ﷺ فيهم وآمنوا به ، واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفي الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا لرسول الله ﷺ وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهم الأوس والخزرج ، وكانت بينهم في الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ، ثم زالت الحروب ، وحصلت الألفة والمحبة ، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ وصار ذلك معجزة لرسول الله ﷺ ظاهرة باهرة دالة على صدقه.

وفي الآية دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأراد وإنما ذلك لأن تلك الألفة والمحبة إنما حصلت بسبب الإيمان وأتباع الرسول ﷺ[٦١].

وقد استدل بهذه الآية أهل السنة على أن أحوال القلوب من العقائد والإرادات والكرامات كلها من خلق الله ﷻ وذلك لأن تلك الألفة والمودة والمحبة الشديدة ، إنما حصلت بسبب الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ فلو كان الإيمان فعلا للعبد لا فعلا لله ﷻ لكانت المحبة المترتبة عليه فعلا للعبد لا فعلا لله ﷻ وذلك على خلاف صريح الآية[٦٢].

فمكان الألفة هو القلوب ومالكها ومصرفها هو الله ﷻ بنص الآية ونصوص الأحاديث، وتذييل الآية بقوله تعالى: ﴿ إنه عزيز حكيم ﴾

(٦١) الجمل: ٣/٢١٩.
(٦٢) الفخر: ١٥/١٩٥.

مشعر بعظيم عزته ﷻ وتصرفه في القلوب الأبية المملوءة من الحمية الجاهلية ، ومن آثار حكمته تدبير أمورهم على وجه أحدث فيهم التواد والتحاب ، فاجتمعت كلمتهم وصاروا جميعا كنانة رسول الله ﷺ الذابين عنه بقوس واحدة ، والجملة كالتعليل للتأليف[٦٣].

(١١) التقوى.

من صفات القلوب السليمة "التقوى"، قال تعالى: ﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ الحج٣٢ .

في شأن الحج الأكبر يبين المولى ﷻ أن امتثال الأمر فيما يختص بشعائر الله هو من تقوى القلوب.

ذلك: خبر مبتدأ محذوف أي الأمر والشأن ذلك ، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا [٦٤].

والتقوى: مشتقة من الوقاية وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ، ويضره يقال: وقاه وقيا ووقاية، صانه.

والتوقية: الصيانة والحفظ .

والمتقي: هو من جعل بينه وبين المعاصي وقاية تحول بينه وبينها من قوة عزمه على تركها ، وتوطين قلبه على ذلك ؛ فلذلك قيل له: متق.

وقد وردت التقوى في القرآن بمعان متعددة[٦٥].

وتعريفها شرعا: حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ويترك بعض المباحات[٦٦].

(٦٣) الألوسي : ٢٨/١٠.
(٦٤) الزمخشري : ١١/٣.
(٦٥) أنظر بصائر ذوي التمييز: ٢٩٩/٢.
(٦٦) أنظر الراغب : ص٥٣٠.

والنكتة في تخصيص القلب في الآية بالتقوى ، أن حقيقة التقوى في القلب وهو منشؤها ولهذا قال ﷺ: "**التقوى ها هنا وأشار إلى صدره**"[٦٧].

أو للإشارة إلى أن التقوى تنقسم إلى قسمين: تقوى القلوب ، وتقوى الأعضاء

وتقوى القلوب: المراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق وهي المثبتة هنا، وتقوى الأعضاء المراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيرا ما تخشع أعضاؤه وقلبه ساه لاه.

وما في الآية شديد الشبه بقولهم : العفو من شيم الكرام ، فمتى فهم منه كونه العفو من أعظم أبواب الشيم فليفهم من ذلك كون التعظيم لشعائر الله من أعظم أبواب التقوى .[٦٨].

(١٢) الإنابة.

من صفات القلوب السليمة "الإنابة"، قال تعالى: ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب .**﴾ ق٣١-٣٣ .

والمعنى: وقربت الجنة للمتقين إكراما واحتفاء بهم على سبيل المبالغة، ويقال لهم هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل أواب رجاع إلى الله حافظ لعهده خائف مطيع طاعة متيقن يعلم أن الله حري بذلك ، وجاء

(٦٧) رواه مسلم ، كتاب : البر والصلة ، باب : تحريم ظلم المسلم وخذله .
والترمذي كتاب البر ، باب : ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ٢٨٦/٤ .
وانظر الفخر: ٣٣/٢٣، القرطبي : ٥٦/١٢، الألوسي: ١٥١/١٧، الجمل: ١٩٩/٣.
(٦٨) الألوسي : ١٥١/١٧ .

هذا الخائف ربه بقلب خاضع خاشع لله مقبل على طاعته ، مخلص فلا يشوب توحيده شائبة.

والإنابة كما يقول الراغب:

النوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى ، يقال: ناب نوبا ونوبة، وسميت النحل نوبا لرجوعها إلى مقارها، والإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل .[٦٩].

ووصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى ؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب[٧٠].

يقول الفخر: القلب المنيب هو القلب الخالي من الشرك ومن سلم قلبه من الشرك ترك غير الله ورجع إلى الله وحده فكان منيبا. ومن أناب إلى الله برئ من الشرك فكان سليما[٧١].

وعلامة القلب المنيب كما يقول أبو بكر الوراق: أن يكون عارفا لحرمة الله، مواليا له، ومتواضعا لجلاله وتاركا لهوى نفسه[٧٢].

والرجوع الدائم لجناب الحق عين الإنابة التي هي صفة عظيمة من صفات القلب السليم.

---

(٦٩) انظر الراغب: ص٥٠٨، والفيروزابادى ١٣٢/٥.
(٧٠) الكشاف: ١١/٤.
(٧١) الفخر: ١٧٧/١٤.
(٧٢) القرطبي: ١٧/ص٢١.

(١٣) الاهتداء.

من صفات القلب السليم: الاهتداء.

قال تعالى: ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم** ﴾ التغابن ١١ .

معنى الآية: أنه ما أصاب أحدا مصيبة في نفسه أو ماله أو ولده إلا بقضاء الله وقدره وعلمه سبحانه ، ومن يصدق بالله مسلما أمره له يهد قلبه .

*** تفصيل القول في معنى الهداية.**

يقول الراغب: الهداية: دلالة بلطف ، ومنه الهدية ، وخص ما كان دلالة بهديت ، وما كان إعطاء بأهديت.

فإن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿ **من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ الصافات ٢٣ .

قيل: إن ذلك على سبيل التهكم، والمبالغة في المعنى كقوله: ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ آل عمران ٢١ .

وقول الشاعر: تحية بينهم ضرب وجيع .[٧٣].

**** والهداية في القرآن الكريم على أربعة أوجه:-**

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال سبحانه : ﴿ **ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ طه ٥٠ .

(٧٣) الراغب: ص٥٣٨.

الثاني : الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنه الأنبياء وإنـــزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعـــالى :- ﴿ **وجعلنـــاهم أئمـــة يهدون بأمرنا ...**﴾ الأنبياء ٧٣ . وهي هداية إرشاد ودلالة .

الثالث : التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعني بقوله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ محمد ١٧ .

وقوله تعالى ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه**"﴾

الرابع : الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقولة تعالى ﴿ **ســـــيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ محمد ٥ .

﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ :

والهداية في هذه الآية : أي للثبات والاسترجاع عند حلول المصـــــائب ، وقد عمد **البيضاوي** إلى هذا التفسير ؛ لأن المؤمن مهتد أصالة .

وقال أهل المعاني : يهد قلبه للشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء(٧٤).

وقال **ابن عباس والضحاك:** هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن مـــا أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه"

وقال **أبو عثمان الجنيدي:** من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة(٧٥).

وقال **مجاهد:** إن ابتلي صبر وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر.

وخلاصة القول: أن هداية القلب تعني انفساحه ورضاه بكل ما قـــدره الله عامه، وما يتنزل من المكروه خاصة ، كالموت والمرض والفقر والقحط، ونظيره قوله تعالى: ﴿ **... وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبـة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ البقرة ١٥٥-١٥٦ .

(٧٤) الفخر: ٢٦/١٥.
(٧٥) القرطبي: ١٣٩/١٨.

(١٤) القوة.

من صفات القلب السليم: القوة ، قال ﷻ: ﴿ **وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا** ﴾ الكهف١٤ .

ضمن ما قصه الله ــ تبارك وتعالى ــ في شأن أصحاب الكهف يبين سبحانه أن الفتية الذين آمنوا بربهم وبسبب تمكن هذا الإيمان من سويداء قلوبهم هان عليهم كل ما سواه من الأهل والمال والوطن ؛ لأنهم كما قال ﷻ : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ البقرة ١٦٥، فثبتهم الله على الدين ، وزادهم يقينا وذلك بالربط على قلوبهم.

*** تفصيل القول في معنى الربط :**

أصل معنى الربط: الشد ، ومنه ربط الفرس شده بالمكان للحفظ ومنه رباط الجيش.

والرباط: مصدر رابطت ، والمرابطة كالمحافظة.

والمرابطة ضربان: مرابطة في ثغور المسلمين ، ومرابطة النفس فإنها كمن أقيم في ثغر وفوض إليه مراعاته فيحتاج أن يراعيه غير مخل به ، وذلك كالمجاهدة ، ومنه يقال فلان رابط الجأش إذا قوي قلبه فلا يفر بل يكف نفسه بالشجاعة (٧٦).

فالمرابطة سواء أكانت حسية أم معنوية تدور حول معنى الشد والتقوية والحفظ والتمكين والتثبيت.

فيكون قوله تعالى: ﴿ **ور بطنا على قلوبهم** ﴾ : ثبتناها بالصبر وعدم الاكتراث بالخوف من البشر ؛ لأن الخوف يزعج القلوب عن مقارها وهم ما انزعجوا.

---

(٧٦) الراغب: ١٨٥، والفيروزابادى: ٣/٣٢.

قال **الألوسي:** ﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ : قويناها بالصبر فلم تزحزحها عواصف فراق الأوطان وترك الأهل والنعيم والإخوان ولم يزعجها الخوف من ملكهم الجبار ولم يرعها كثرة الكفار.

أو معنى الربط: الحبس فيكون المعنى وحبسنا على قلوبهم باليقين والصبر[٧٧].

وقد عدي الربط بعلى للإيذان بأن قوة قلوبهم بلغت في الكمال إلى أن صارت مستولية على القلوب حتى صارت كأنها علت عليها وارتفعت فوقها أي فتفيد التمكن في القوة[٧٨].

وبنحو ما قيل في الربط على قلوب أصحاب الكهف قيل في الربط على قلب أم موسى في قوله تعالى: ﴿ **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** ﴾ القصص ١٠ .

فالربط على القلب هنا: إلهام الصبر كما يربط على الشيء المنفلت ليقر ويطمئن ، والمراد: لولا أن ثبتنا قلبها وصبرناها.

وجواب لولا محذوف دل عليه ﴿ **إن كادت لتبدي به** ﴾ أي لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته ، وقيل: لكادت تبدي به .[٧٩].

إذن فالربط على القلوب فضل من الله ومنة يجعله سبحانه على قلب من أحب من عباده ليقبلوا قضاء الله وقدره بنفس مطمئنة ، ونفوس أبية قصارى ما تصنع أن تقول:﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** .﴾ البقرة ١٥٦ .

---

(٧٧) الألوسي ٢١٨/١٥.
(٧٨) زادة: ٣٠٠/٢.
(٧٩) الألوسي: ٤٩/٢٠.

(١٥) الليونة.

قال ﷻ : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾الزمر ٢٣.

في حديثه سبحانه وتعالى عن الكتاب العزيز القرآن الكريم ، يبدأ المولى تبارك وتعالى بما يشعرنا بهيبته وجلاله فيصدر الآية الكريمة بلفظ الجلالة "الله" العلم على الذات العلية الذي عندما يخبر بشيء فلا مناص من أن تنسحب على المخبر به من صفاته وهيبته ما به نوقن ونعترف له بالجلال ولما أنزله بالتصديق والعمل.

﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها** ﴾ أي : في الإعجاز والإتقان والإحكام والفصاحة وضروب البلاغة.

﴿ **مثاني**﴾: يثنى ويكرر فيه الوعد والوعيد والبشارة والنذارة والإحكام والمواعظ ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم أي تعلو جلودهم من هيبته وهيبة منزلة قشعريرة.

﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ الليـن: ضد الخشونة. والليونة على وجهين.

الوجه الأول: في الأجساد كلين الشمع والحديد وغيره.

الوجه الثاني: في المعاني والأخلاق: كلين الطبع ولين القول. والآية التي نحن بصددها من النوع الثاني وهي تتضمن الإشارة إلى إذعانهم للحق وقبوله(٨٠).

(٨٠) الراغب: ص٤٥٧، والبصائر: ٤/٤٧٢.

قال صاحب الكشاف: المعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من القشعريرة.

فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أولا ثم قرنت بها القلوب ثانيا.

قلت: إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب فقد ذكرت القلوب فكأنه قيل تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أول وهلة فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة لينا في جلودهم(٨١).

والقشعريرة: تغير يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف.

والليونة: الرقة والطمأنينة ، والسكون.

و بما أن الرقة ضد الخشونة والقساوة ، وقد أخبرنا الله ﷻ أن القساوة لا تكون إلا في القلوب المريضة المذنبة ، فالرقة لا تكون إلا في القلوب السليمة الصالحة.

﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾ أي : ذلك القرآن.

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي : ومن يخذله الله فيجعل قلبه قاسيا مظلما فليس له مرشد ولا هاد بعد الله ﷻ .

(١٦) الفقه.

من صفات القلوب السليمة " الفقه".

قال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ الأعراف ١٧٩.

(٨١) الكشاف: ٣/٣٩٥.

يخبر الله تعالى أنه خلق للنار خلقا بعدله ، وذلك أنه لما أراد سبحانه أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **كتب الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء** ".[٨٢]

هذا الصنف الذي اختاره الله لجهنم لهم صفات حددتها الآية ، فقال عز من قائل:

﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها .** ﴾

حيث عطلوها عن الفهم فأصبحت لا منفعة منها فأصحابها لا ينتفعون بها ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا.

قال الراغب : والفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص من العلم ، وجمع فقيه فقهاء ، وهيب فقيهة والجمع فقائه . [٨٣]

والمراد بالفقه: الفهم يقال: فقه ــ بالكسر ــ أي فهم ، وغلب على علم الدين لشرفه وفقه ــ بالضم ــ إذا صار فقيها أي فاهما أو عالما بالفقه ، والفعل هنا متعد إلا أنه حذف مفعوله لإفادة التعميم ، أي : لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئا مما شأنه أن يفهم فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا فهم لم يعرفوا ما خلق لهم لما خلق له فإنهم خلقوا كذلك[٨٤].

---

(٨٢) رواه مسلم كتاب القدر باب : حجاج آدم وموسى عليهما السلام ، النووي على مسلم ١٦/٤١٩ .

(٨٣) الراغب ص٣٨٤ ، والفيروزابادي ٤/٢١٠ .

(٨٤) الألوسي ٩/١١٩.

وقد احتج العلماء بهذه الآية على أن محل العلم هو القلب ؛ لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم بهم في معرض الذم.

واحتجوا أيضا بهذه الآية على أن آلة الفقه هي القلب.

قال **صاحب البحر**: وهذا دليل على أن القلب آلة الفقه والعلم كما أن العين آلة للإبصار والأذن آلة للسماع[٨٥].

" القرآن يقصر استعمال هذه المادة استعمالا مجازيا إذا كانت اسما ، حيث جاء وصفا للقلوب فلا نجد واحدا منها خرج عن نطاق الاسمية، وهو في استعماله لها استعمالا مجازيا ما فارقت وصف القلب في أي موضع كذلك.

أما استعمال القرآن لها في معانيها اللغوية فذلك مقصور على حالتين :إذا كانت فعلا، وهي كذلك في موضع واحد وهو آية الشعراء حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين .**﴾ الشعراء٨٠ .

وإذا كانت وصفا مشتقا مفردا كان أو مجموعا وهي في هذه الحالة لا ترد إلا في مقام التشريع وتيسير الأحكام .

وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآني ودعامة من دعامات إعجازه مثيرة للدهشة ، فيها دقة وعمق نظر :-

أما الدقة: فالالتزام هذا المنهج الفريد ، وما كان هناك حرج لو خولف ، لا في واقع اللغة ولا في طبيعة الأسلوب.

وأما عن عمق النظر: فللبحث عن سر هذا الالتزام وما روعي فيه من لطائف ودقائق يعز فهمها وتوجيهها[٨٦].

(٨٥) البحر ٢٢٨/٥ والألوس ٦٨/١٥.

(٨٦) أنظر خصائص التعبير القرآني ــ د.المطعني ٣١٤/٢،٣١٥.

* **دلائل قدرة الله بصرا عتبار :-**

﴿ **ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾ شيئا من الحق سماع تدبر ،أولئك الموصوفون بهذه الصفات كالأنعام أي الحيوانات في عدم الانتفاع بما أعطاهم الله من منافع بل هم أسوأ حالا من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار.

﴿ **أولئك هم الغافلون** ﴾ المستغرقون في الغفلة والتناس .

ولعل المتدبر في الآية الكريمة يدرك أن نفي الفقه والإبصار والاستماع ليس نفيا حقيقيا ، لأن المراد نف هذه الأشياء في جانب الدين.

وإلا فالغافل يفقه ويبصر ويسمع ولكن فيما دون أوامر الله ونواهيه فليتدبر.

هذه أبرز ما احتوى عليه القرآن من صفات تميز القلب السليم المستنير الفاقه الفاهم أوامر الله حق الفهم .

ولما كان بضدها تتميز الأشياء ذهبنا مباشرة إلى الصفات المميزة للقلوب المريضة ، فما هي القلوب المريضة وما تشخيص داءها من خلال القرآن الكريم هذا ما سيكون في الورقات التالية.

إن شاء الله تعالى .